Adab Al-Rafidayn

https://ojs.uomosul.edu.iq/index.php/radab

Sufism in the Book Dhail al-Durar al-kāminah by Ibn Ḥajar al-ʿAsqalānī

Mohammed Ali Salih
Department of History / College of Arts /
University of Mosul/ Mosul - Iraq

Article Information

Article History:
Received May **28**, 2025
Revised Jun **07** .2025
Accepted Jun **16**, 2025
Available Online March.1 , 2026

Keywords:
Mamluks,
9th century AH,
Asceticism,
Philosophical Sufism,
Biographies.

Correspondence:
Mohammed Ali Salih
Mohamed.a.s@uomosul.edu.iq

Abstract

This research discusses the news of the notables in the early9th century AH , who were translated by Ibn Hajar al-Asqalani in the book "Dhail al-Durar al-Kaminah". He was close to sixty years old and had reached the stage of scientific maturity, far from the impulsiveness of the enthusiastic young man. He may have met most of those he translated and had dialogues with them, in addition to being the chief judge of the Shafi'i sects in Egypt and close to the decision-making circles in the state, fully informed about the sects and groups, in addition to being one of the most prominent hadith scholars and scholars who explored knowledge, groups and sects. He did not issue judgments rashly in his recording of the news of others, including the Sufis of that era. Ibn Hajar's position on the Sufis in the book "Dhayl al-Durar" was divided between praise and commendation for some scholars who were known for their asceticism and distancing themselves from the adornments of life and its material and moral temptations. He was harsh on the Sufis who followed the school of Ibn Arabi, praising everyone who stood against them. He also showed in his biographies the inclination of some of the people of power towards Sufism, whether in bringing some of the attracted ones closer or in Spending on the bond and charity to the poor among them.

DOI 10.33899/radab.v56i104.61687 ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license ((http://creativecommons.org/licenses/by/4.0))

الصوفية في كتاب ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني

محمد علي صالح *

المستخلص:

يناقش هذا البحث اخبار المتصوفة في بداية القرن التاسع الهجري الذين ترجم لهم ابن حجر العسقلاني في كتاب ذيل الدرر الكامنة، وكان قد قارب الستين من العمر وبلغ مرحلة النضج العلمي بعيدا عن اندفاع الشاب المتحمس ، وقد يكون التقى بأغلب من ترجم لهم وحاورهم ،فضلا عن كونه قاضي قضاة الشافعية في الديار المصرية وقريباً من دوائر اتخاذ القرار في الدولة ،مطلعاً على الطوائف والفرق اطلاعاً شافياً، فضلا عن كونه من اعلام المحدثين والعلماء الذين سبروا العلم والفرق والطوائف ،فكان لا يطلق الاحكام جزافا في تدوينه

*قسم التاريخ /كلية الاداب /جامعة الموصل/ الموصل -العراق

لأخبار الآخرين ومنهم الصوفية في ذلك العصر ،وموقف ابن حجر من الصوفية في كتاب ذيل الدرر توزع بين المدح والثناء لبعض العلماء الذين عرفوا بالزهد والابتعاد عن زخرف الحياة ومغرياتها المادية والمعنوية ، وكان شديداً على المتصوفة من اتباع التصوف الفلسفي مداحاً لكل من يقف بالضد منهم ،كما بين في تراجمه ميل بعض ارباب السلطة الى التصوف سواء في تقريب بعض المجذوبين او في الانفاق على الربط والإحسان الى الفقراء منهم .

الكلمات المفتاحية :المماليك، القرن التاسع الهجري، الزهد ، التصوف الفلسفي، التراجم.

المقدمة:

يتناول البحث الصوفية في العصر المملوكي في كتاب ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، وابن حجر واحد من فحول العلماء في العصر المملوكي الف في التاريخ والتراجم والحديث وهو مطلع على أخبار مصر والبلاد الإسلامية مثل الحجاز وبلاد الشام واليمن .

تأتي أهمية هذا البحث من كون ابن حجر قد دون أخبار الاعيان الذين عاصرهم، وقد قارب الستين من العمر وبلغ مرحلة النضج العلمي بعيداً عن اندفاع الشاب المتحمس، وقد يكون التقى بهم وحاورهم، فضلا عن كونه قاضي قضاة الشافعية في الديار المصرية مطلعاً على دقائق الأمور لقربه من السلطة وعارفاً بالفرق والمذاهب لعلمه الغزير.

نطاق البحث الزمني من سنة 800 ه الى سنة 832 ه وهي المدة الزمنية التي ترجم فيها ابن حجر لأعيان المجتمع حينما طلب منه بعض العلماء ان يكتب كتاباً يجعله ذيلاً لكتابه الدرر الكامنة ، أمّا النطاق الجغرافي فبلاد مصر والشام والحجاز واليمن.

أمّا هدف البحث فهو بيان موقف عالم من علماء الإسلام الكبار وهو ابن حجر العسقلاني من الصوفية وكيف تعامل مع علماء ورجال التصوف من مدح وثناء ونقد وبيان بعض الأخطاء التي وقع بها الصوفية في ذلك العصر وبيان موقف بعض رجال السلطة وبعض العامة من الصوفية.

تناول البحث أولا التعريف بابن حجر العسقلاني وأسباب تأليف كتاب ذيل الدرر الكامنة ومكانة ابن حجر العلمية في العصر المملوكي وتكوينه العلمي، كما بين البحث معنى الصوفية في العصر المملوكي، سيذكر البحث عوامل انتشار التصوف في العصر المملوكي من دعم السلاطين ورجال السلطة للتصوف من اجل كسب الأجر والثواب، ويوضح البحث موقف ابن حجر الأكثر تكرراً في كتابه ذيل الدرر وهو الثناء على التصوف السني الذي امتاز به العديد من علماء الصوفية وما قدموا من خدمات لطلبة العلم والتصدق ونشر العلم وبناء الزوايا .

كما ان البحث يبين الموقف المتشدد لابن حجر العسقلاني من التصوف الفلسفي الذي سماه بمقولات ابن عربي او نحلة ابن عربي، وأين انتشر التصوف الفلسفي ولقي الدعم بأي البلدان في ذلك العصر وموقف العلماء من تلك المقولات.

أما آخر ما سيناقشه البحث فهي طبائع وعادات الصوفية وأسباب رواج تلك العادات في المجتمع المملوكي مثل المجذوبين والانعزال والتقرب الى الصوفية المنقطعين ورواج الكرامات والمكاشفات كما سيوضح موقف ابن حجر من بعض اوراد الصوفية اتي راجت في ذلك الزمان .

أولا -ابن حجر وكتابه ذيل الدرر

يعدُّ ابن حجر واحداً من اهم العلماء في العصر المملوكي فقد ولد في سنة 773 هـ/ 1372م ونشأ في كنف أبيه وبعد وفاة ابيه، تكفل به احد اعيان التجار في مصر زكي الدين الخروبي،[1] الذي لم يتوانَ عن دفعه نحو طلب العلم، فحرص منذ الصغر على التعلم وحفظ القران في سن مبكرة، ومدح ابن حجر اخته ام محمد ست الركب ت 798ه التي اعتنت به ايما اعتناء في تلك المرحلة العمرية من حياته. [2]

وبعد بلوغه العشرين تنبه الى طلب الحديث الشريف وانكب على البحث فيه وطلبه من كبار علماء عصره في مصر فرحل الى الإسكندرية وبقية الديار المصرية، وارتحل الى الحجاز واليمن وجاور بمكة واقبل على الاشتغال، ودخل دمشق في رحلته الى بلاد الشام في مطلع القرن التاسع الهجري، وبقي ينهل من كبار المسندين فيها من الرجال والنساء مثل فاطمة بنت المنجا وغيرها، [3] وقيل انه سمع الف جزء من كتب الحديث، غير انه عاد ادراجه مسرعاً الى مصر قبيل دخول تيمورلنك الى الشام. [4]

([1]) السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ،الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ،تحقيق إبراهيم باجس(دار ابن حزم ،بيروت :1999)ج1/ص121

([2]) العماد الحنبلي ،عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري ،شذرات الذهب في اخبار من ذهب ،تحقيق محمود الأرناؤوط ،ط1(دمشق ،دار بن كثير:1986)74/1

([3]) السخاوي ،الجواهر والدرر،ج1/ص159

([4]) قال السخاوي : وكان دخوله إلى الشام في حادي عشري رمضان سنة اثنتين، فنزل فيها على صاحبه الصدر علي بن محمد بن محمد بن الأدمي، لِمَا كان بينهما مِنَ المودَّة، وأقام بها مائة يوم، آخرها أول يوم مِنَ المحرم سنة ثلاث وثمانمائة، ووجد هناك رفيقه الحافظ صلاح الدين خليل الأقفهسي. وحصل له في هذه المدة مع قضاء أشغاله ما بين قراءة وسماع من الكتب

ومن المشهور ان الحافظ ابن حجر العسقلاني قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فكان يفخر بشيوخه الذين تميزوا بفنون عديدة ، وذكر ذلك في اكثر من موضع في كتبه فقال في ذيل الدرر"هو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفن فاق فيه اقرانه على رأس القرن الثامن رحمهم الله اجمعين وهم الشيخ سراج الدين البلقيني في الفقه على مذهب الشافعي والشيخ زين الدين العراقي في الحديث والشيخ سراج الدين ابن الملقن في كثرة التصانيف في فني الفقه والحديث والشيخ شمس الدين الغماري في العربية والشيخ أبو عبد الله بن عرفة في فقه المالكية وفي سائر العلوم في المغرب والشيخ مجد الدين الشيرازي في اللغة وقد وفق الله تعالى ان الجميع اخذت منهم "[1]

وقد الف في العديد من الفنون وفاق الاقران في كل فن، وبرع في التأليف في الحديث ،حتى لقب بأمير المؤمنين في الحديث،[2] ومن جواهر ما كتب في فنون الحديث تغليق التعليق وفتح الباري شرح صحيح البخاري وتهذيب التهذيب ، وله مؤلفات تاريخية يشار اليها بالبنان منها الإصابة في تمييز الصحابة والدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة وانباء الغمر بابناء العمر ،اجاد فيها ،فكان كتاب الدرر الكامنة موسوعة علمية حفظت تراجم اعيان القرن الثامن الهجري من العلماء والمحدثين والامراء والادباء والقضاة والتجار والصوفية ، في مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن والعراق وبلاد المغرب ،ممن وصلت اليه اخبارهم ، وكتاب انباء الغمر جمع فيه بين منهج الحوادث والوفيات وقال عنه انه يكون ذيلا على تاريخ ابن كثير(البداية والنهاية) في الحوادث، وذيلا على وفيات ابن محمد رافع السلامي ت 774ه [3]

وهو بهذا لم يكن يؤلف اعتباطاً بل كان حافظاً فاهماً ان تاريخ الامة لابد ان يحفظ كالنهر الجاري لا تغيب عنه أية سنة[4]، أمّا كتاب ذيل الدرر الكامنة المعتمد عليه في البحث ، فهو من المؤلفات التي تنبه اليها ابن حجر بعد مرور الثلث الأول من القرن التاسع الهجري، والغاية منه هو جعله مكملا لكتاب الدرر الكامنة في تدوين اخبار الاعيان الذين كتب الله اجلهم بين سنة (800 -832هـ /1397 -1429م)،حفظ فيه تراجم لعلماء عاشوا في الثلث الأول من القرن التاسع الهجري مرتبا على السنين ، بالمنهج نفسه المعتمد في الدرر ، فدون اخبار العلماء والادباء والامراء وارباب الوظائف من القضاة والمدرسين وغيرهم ، الا ان ابن حجر في الدرر التزم تدوين التراجم بمنهج اعتمد على حروف المعجم ، وهذا هو الاختلاف الوحيد بين الدرر وذيل الدرر .

وقال في سبب تأليف الكتاب "أمّا بعد فإنني قد علقت تاريخا خاصا بأعيان المائة الثامنة التي ولدت في اثنائها فلما شارف بأن يكمل رأيت المائة التي تليها قد دخل منها اكثر من الثلث،فاردت ان اضع على ذلك الأول ذيلاً يشتمل على الاعيان المختصة بالثاني ،فالتمس مني بعض الاحبة الاعزة ان اجعل هذا الثاني على السنين لتحقيق عدم استيعاب المائة التاسعة فأجبت سؤاله ،وأوردت في هذا التعليق أسماء من اطلعت على خبره" [5]

وتأتي أهمية هذا البحث من كون ابن حجر قد دون اخبار الاعيان الذين عاصرهم ، و قد قارب الستين من العمر وبلغ مرحلة النضج العلمي بعيداً عن اندفاع الشاب المتحمس ، وقد يكون التقى بهم وحاورهم ،فضلا عن كونه قاضي قضاة الشافعية في الديار المصرية ،[6] وقريب من دوائر اتخاذ القرار في الدولة ،مطلعا على الطوائف والفرق اطلاعاًشافياً، فضلا عن كونه من اعلام المحدثين والعلماء الذين سبروا العلم والفرق والطوائف ،[7] فكان لا يطلق الاحكام جزافاً في تدوينه لأخبار الآخرين ومنهم الصوفية في ذلك العصر ،وموقف ابن حجر من الصوفية في كتاب ذيل الدرر توزع بين المدح والثناء لبعض العلماء الذين عرفوا بالزهد والابتعاد عن زخرف الحياة ومغرياتها

المجلدات، خاصة من "المعجم الأوسط" للطبراني ثلاثة، ومن "الكبير" مجلد، و"الصغير" بتمامه في مجلد. ومن "الدُّعاء" له مجلد. و"المعرفة" لابن مَنْدَه في أربعة، و"السنن" للدارقطني في اثنين، و"مسند مسَدَّد"، و"الموطأ" لأبي مصعب كل واحد منهما في مجلد، ومن كل كتاب من "صحيحي" ابن خزيمة وابن حبَّان مجلد، ومن "المختارة" للضياء خمسة. ينظر الجواهر والدرر،ج160/1

([1]) ابن حجر العسقلاني ،احمد بن علي، ذيل الدرر الكامنة ،تحقيق احمد فريد المزيدي ط1(دار الكتب العلمية،بيروت : 1998)ص178، ابن تغري بردي ،يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الحنفي ،المنهل الصافي ،تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (مصر ،الهيئة المصرية للكتاب:د/ت) 18/2

([2]) وهو أرفع المراتب وأعلاها، وهو من فاق حفظا وإتقانا وتعمقا في علم الأحاديث وعللها كل من سبقه من المراتب بحيث يكون لاتقانه مرجعا للحكام والحفاظ وغيرهم. ينظر ،عتر ،نور الدين ،منهج النقد في علوم الحديث ط3(دار الفكر ،دمشق ،سوريا:1981)539

([3]) ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي ،انباء الغمر بأبناء العمر ،تحقيق حسن حبشي (لجنة احياء التراث ،مص: 1969)ج1/ص5؛ قال ابن حجر يصف ابن رافع "وَقد ذكر لي شَيخنَا الْحَافِظ أَبُو الْفضل الْعِرَاقِيّ أَن الشَّيْخ تَقِيّ الدّين السُّبْكِيّ كَانَ يرجحه فِي معرفَة اصْطِلَاح أهل الحَدِيث على ابْن كثير " ابن حجر العسقلاني ،احمد بن علي، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة تحقيق محمد عبد المعين خان (دائرة المعارف العثمانية ،الهند :1972) ،181/5

([4]) صالح،محمد علي ،دور المؤرخ في الحضارة الإسلامية. مجلة آداب الرافدين، س. 39. ع. 53، 2009. https://doi.org/10.33899/radab.2009.31851

([5]) ابن حجر :ذيل الدرر :ص 25

([6]) تولى منصب قاضي قضاة الدار المصرية منذ سنة 827هـ الى سنة 852هـ يعزل ويعاد وان كان هو الأكثر بقاء في المنصب ويدل ذلك على مكانته وعلو كعبه في الديار المصرية ؛ ينظر ،ابن تغري بردي ،المنهل الصافي ،21/2

([7]) قال ابن تغري بردي ((وكان رحمه الله حافظ المشرق والمغرب، أمير المؤمنين في الحديث، انتهت إليه رئاسة علم الحديث من أيام شيبته بلا مدافعة، بل قيل إنه لم ير مثل نفسه، قلت: وهذا هو الأصح. وكان عفا الله عنه ذا شيبة نيرة ووقار وأبهة، ومهابة، هذا مع ما احتوى عليه من العقل والحكمة والسكون والسياسة والدربة بالأحكام ومداراة الناس، قبل أن يخاطب الشخص بما يكره، بل كان يحسن لمن يسيء إِلَيْهِ ويتجاوز عمن قدر عليه.راوية للشعر وأيام من تقدمه وعاصره، فصيح اللسان، شجي الصوت، هذا مع كثرة الصوم ولزوم العبادة، واقتفائه طرق من تقدمه من الصلحاء السادة، وأوقاته للطلبة مقسمة تقسيماً لمن ورد عليه آفاقياً كان أو عنده مقيماً، مع كثرة المطالعة والتأليف والتصدي للإفتاء والتصنيف)) المنهل الصافي ،23/2

المادية والمعنوية ، وكان شديدا على المتصوفة من اتباع التصوف الفلسفي مداحاً لكل من يقف بالضد منهم ،كما بين في تراجمه ميل بعض ارباب السلطة الى التصوف سواء في تقريب بعض المجذوبين او في الانفاق على الربط والإحسان الى الفقراء منهم .

ثانيا ـ الصوفية

اختلف الباحثون في أصل الصوفية ومعنى الصوفية في التاريخ الإسلامي فالبعض ارجعه الى لبس الصوف والزهد وآخر ربطه بأهل الصفة من الصحابة رضي الله عنهم ،ومنهم من ارجعه الى أصول غير إسلامية ويقول احد الباحثين "وقيل انه مشتق من الصفو بمعنى الصفاء أيضا ، وقيل انه مشتق من الصف لان الصوفية في الصف الأول امام الله ، وقيل انه نسبة لأهل الصفة ، وكانوا قوما من فقراء المهاجرين والانصار بنيت لهم صفة في مؤخرة مسجد الرسول ، وكانوا يقيمون فيها وكانوا معروفين بالعبادة ، وقيل انه مشتق من الصفة ، وقيل هو مشتق من اسم صوفة بن مرة أحد سدنة الكعبة في الجاهلية ، وقيل من كلمة : سوفيا ، اليونانية التي تعني الحكمة ، وقيل غير هذا ، ولكن الدراسة العملية أثبتت أن هذه الوجوه كلها بعيدة ، والاصوب أن يقال ان اشتقاق كلمة صوفي هو من الصوف ، فيقال : تصوف الرجل اذا لبس الصوف ، وكان لبس الصوف شعارا للعباد والزهاد لأول نشأة الزهد ، وكثير من الصوفية أنفسهم يذهبون الى هذا الرأي الأخير" [1]

وليس موضوع البحث تحقيق اصل التصوف وتاريخ التصوف ، ولكن الذي يهمنا من الامر ان التصوف في القرن الثامن والتاسع الهجري قد وصل الى مرحلة متقدمة اختلف عن الزهد في القرون الأولى بل تطور واندمج مع غيره من العلوم وانتشرت اقوال ابن عربي الحاتمي [2]وابن سبعين [3] بين متصوفة القرن التاسع الهجري (التصوف الفلسفي)،وهم ما يعرفون باتباع نحلة ابن عربي في كتابات ابن حجر الذين دخلوا في نزاع كبير مع العلماء من اتباع منهج السلف [4]،وقد واجه العديد من العلماء والفقهاء تلك الطرائق واعمالها التي انتشرت في المجتمع المصري ودونت في كتب التاريخ والتراجم، كما نجد ذلك عند المقريزي وابن حجر والسخاوي ،وكذلك راجت في العصر المملوكي طرائق صوفية عديدة ،مثل الشاذلية [5]والقلندرية [6]والرفاعية [7]وغيرها.

ثالثا _ عوامل انتشار التصوف في العصر المملوكي

من المعروف ان المماليك تربوا تربية عسكرية ساعد الحظ والاجتهاد البعض منهم على الوصول الى مراتب عليا في سلك الدولة ،حتى غدا بعضهم امراء وسلاطين ،وهذا الامر جعلهم لا يختلفون عن العامة في التعامل مع الصوفية والمتصوفة ،بل ان العديد منهم قد تقرب الى الصوفية بالإحسان اليهم وتلبية متطلباتهم وبناء الربط والزوايا للحصول على الاجر والثواب ،ومما هو مشهور في تاريخ العصر المملوكي ان التصوف اثر في المجتمع حتى اعتقد الكثير من الناس بالكرامات وأصحاب الكشف والمجذوبين ،ولقوا قبولا بين جميع الطبقات ،ومنهم امراء المماليك واعيان السلطة المملوكية ،الذين اخذوا يتبركون بهم وبخدمتهم من اجل الحصول على الثواب من الله تعالى حسب ما كان رائجا في تلك العصور ، ويذهب احد الباحثين الى القول "كان هناك ارتباط كبير بين الكرامات والأحوال السياسية التي استغلها الصوفية للترويج لكراماتهم، فعندما يتولى سلطان يقال إن مجذوباً بشره شفاها بالتملك ، وحين يمرض السلطان يفسر مرضه بإنكاره على شيخ بعينه

([1]) التفتزاني ،أبو الوفا الغنيمي ،مدخل الى التصوف الإسلامي ط3،(دار الثقافة :القاهرة :دت)ص21

([2]) أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي الشهير بسيدي محي الدين بن عربي ت 638هـ ،ينظر الغريني ،احمد بن احمد بن عبدالله ،عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة ،ط2،تحقيق عجاج نويهض(دار الافاق الجديدة ،بيروت1979)ص156

([3]) عبدالحق بن إبراهيم بن محمد نصر بن محمد بن نصر بن سبعين المخزومي الصوفي قال الذهبي عنه: كان صوفيًا على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم. وله كلامٌ كثير في العرفان على طريق الاتحاد والزندقة، الذهبي محمد بن احمد بن عثمان ،تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام ،تحقيق بشار عواد معروف ،ط1(دار الغرب الإسلامي ،بيروت:2003)ج168/15

([4]) يونس، عبد القادر احمد واحمد، محمد عبدالله: اراء الامام الذهبي في التصوف. مجلة اداب الرافدين، س. 49. ع. 76، 2019. .10.33899/radab.2019.164874

([5]) طريقة صوفية تنسب الى أبي الحسن الشاذلي المغربي ،علي بن عبد الله بن عبد الجبّار بن تميم بن هُرْمُز بن حاتم بن قُصي بن يوسف، نزيل الإسكندرية، ينظر الذهبي ،تاريخ الإسلام ج829/14

([6]) القلندرية :طائفة تنتمي إلى الصوفية، وتارة تسمي أنفسها ملامتية، وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلّا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة، واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، والتزموا أن لا يتّخروا شيئا، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب *قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب* .*ينظر، المقريزي احمد بن علي بن عبد القادر المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،ط1،(دار الكتب العلمية بيروت:1418هـ)ج311/4*

([7]) تنسب الرفاعية الى ابي العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرافاعي؛ كان رجلاً صالحاً فقيها شافعي المذهب، أصله من العرب، وسكن في البطائح بقرية يقال لها: أم عبيدة، وانضم إليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه. والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه، ولأتباعه أحوال عجيبة: من أكل الحيات وهي حية، والنزول في التنانير وهي تتضرم بالنار فيطفئونها، ويقال: إنهم في بلادهم يركبون الأسود، ومثل هذا وأشباهه، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لا يعد ولا يحصى ،ينظر ابن خلكان ،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس ،ط1(دار صادر ،بيروت :1990)ج171/1-172

فجوزي بالمرض، وكان من العادة شبه الدائمة أن تنتهي حياة الأمراء وأرباب المناصب بالمصادرة والعزل والقتل والحبس، ومع ذلك كانت تفسر في ضوء غضب الأولياء ومعرفتهم الغيب " [1]

ومن العوامل التي زادت من انتشار التصوف الأوبئة والمجاعات وما يترتب عليها من موت ووفيات اعملت على تحطيم الاستقرار النفسي ولجوء بعض الناس الى الزهد والتمسك بالغيبيات ، ويجعل أحمد أمين من ظلم المماليك دافعاً لانتشار التصوف حيث افتقد المصريون العدالة في الأرض فأملوها في السماء وعجز الناس عن فهم المسببات وربطها بالاسباب فهرعوا الى المتصوفة يمنحونهم البركة ويستقضون منه الحوائج فكثر ارباب الطرائق ومشايخ الصوفية ومدعو الولاية وكان في الركون الى الصوفية ما يرضي النفوس ويسليها امام هذا الواقع [2] هذه الأمور جعلت جزءاً من السلطة وبعض والعامة في العصر المملوكي تساير بعض المجتمع الذي فشت فيه كرامات الاولياء وبركاتهم وتأثيرهم في شعور الأغلبية الساحقة من المجتمع ولم ينجُ من هذه الانطباعات والخلجات الا النزر اليسير من علماء السلف الذين بينوا تلك الأمور ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني الا اننا نجده في بعض المواضع يوافق عقلية تلك الحقبة وما ساد فيها في بعض التراجم التي دونها في كتاب الدرر الكامنة والذيل عليه وانباء الغمر .

رابعا_موقف المدح والثناء للصوفية .

نال العديد من اعلام الصوفية والتصوف ثناء ابن حجر العسقلاني حين ترجم لهم في كتابه ذيل الدرر خاصة ممن التقى بهم او وصلت اليه اخبارهم من البلاد الأخرى مثل اليمن والشام وغيرها ،فكان يمتدح زهد الكثير من العلماء والصوفية الذين ابتعدوا عن مخالطة الناس واصحاب الجاه والسلطة ، واتجهوا الى التفرغ للعبادة والزهد ، وذاع صيتهم بين العامة والخاصة فقال عن احدهم " خلف بن حسن الطوخي :كان منقطعا في داره مشهورا بالخير وشفاعته عند الاكابر مقبولة وزاره السلطان فعظم امره عند الناس " [3]، وأشاد الحافظ ابن حجر في اجلاء الصوفية الذين قدموا خدمات جليلة للمجتمع المصري وطلبه العلم وافنوا حياتهم في الاحسان الى الطلبة والوافدين الى مصر، وهذا يدل على فضل كبير لبعض المتصوفة الذين ترجم لهم وسجل اخبارهم ، فقال عن الشيخ إبراهيم بن موسى بن أيوب الابناسي ت 802ه /1400م -"وقدم القاهرة وله بضع وعشرون سنة، .... وتخرج في الحديث بمغلطاي، ومهر في الفقه والأصول والعربية، وشغل فيها، وبنى زاوية بالمقس ظاهر القاهرة، وأقام بها يُحْسِنُ إلى الطلبة ويحملهم على التفقه، ويرتب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الرّزْق وخصوصا الواردين من الضواحي، فصار أكثر الطلبة بالقاهرة من تلامذته، وتخرج به منهم خلق كثير، وكان حسن التعليم، لين الجانب، متواضعا، بشوشا، متعبداً، متقشفا، مطرح التكلف، ويدرس بمدرسة الناصر حسن، وبالآثار النبوية، وبالجامع الأزهر لازمه طويلاً وأخذتُ عنه في الفقه، وقرأت عليه في جامع الترمذي وغيره ...ولم يزل مستمراً على طريقته وإفادته ونفعه إلى أن حج في سنة إحدى وثمانمائة مات راجعا في المحرم بعيون القصب بالقرب من عقبة أيله ودفن هناك" [4]وأشاد ابن حجر ببعض الصوفية ممن عرفوا بالإحسان والانفاق في وجوه الخير فقال عن علي بن عبد العزيز الخروبي ت 802هـ/1400م "نشأ صوفياً وكان عارفا بالتجارة ،شهما عفيفا دينا متصونا ،حج مرارا وجاور ،وأوصى لعمارة الحرم الشريف المكي بمائة الف تكون يومئذ نحوا من ثلاثة آلاف دينار ،وقبضت من تركته وعمر بها الحرم من البعد الحريق المشهور" [5]ويرد كثيرا في ذيل الدرر المدح لمشايخ الصوفية الذين انقطعوا للعبادة واعتزلوا الناس بعد ان تعلموا العلوم الشريعة على كبار المشايخ ورغم الانعزال الا انهم واصلو بث العلم ونشره لمن يقصدهم فقال ابن حجر يصف احدهم"ولد سنة ثلاث وثلاثين او التي قبلها وسمع على محمد بن إبراهيم الذهبي وأبو الفتح الميدومي، وشمس الدين الحسيني ،وصلاح العلائي فأكثر عنه ،وتفقه قليلا وانقطع للعبادة واتخذ بغزة مسجدا فقطنه ،وللناس فيه اعتقاد كثير ،ونعم الشيخ كان ديانة وخيرا واستحضارا ،لقيته بغزة فقرأت عليه جزا وانتفعت ببركته " [6] ومن شيوخ ابن حجر الذين مدحهم واثنى عليهم ،ممن عرفوا بالبركة وكان لهم ولاسرتهم اثرٌ في التصوف شيخه عبد الله بن عمر بن على بن مبارك الهندي الأصل السعودي، أبو المعالي الأزهرى المعروف بالحلاوي قال عنه "أسمع الكثير من يحيى بن المصري، وأحمد بن علي المستولي، وإبراهيم بن على القطبي، ...وكان شيخا ساكنا صبوراً على الإسماع لا يفتر ولا يضجر ولا ينعس، بل لا أعرف في شيوخ الرواية الذين أخذت عنهم أحسن أداء ولا إصغاء من قرأت عليه جميع مسند أحمد في مدة يسيرة وكان جده الشيخ مبارك معتقداً، فبنيت له زاوية بالأبارين بقرب الجامع الأزهر فسكن بها، فكانت مجمعاً لطلبة الحديث يسمعون بها الحديث على مشايخ العصر بعد أن كثرت سماعاته، ولم يتفق أنه يكتب له ثبت مما كان يحدث إلا من أصوله غالباً وقد وعك مرة فاتفق ذلك يوم الموعد فأردنا أن نرجع،

([1]) منصور ،احمد صبحي ،العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف (الهيئة المصرية للكتاب :2000)ص 239

([2]) احمد امين ،ظهر الإسلام ط 3(دار الكتاب العربي ،بيروت :د/ت)219/4

([3]) ابن حجر ذيل الدرر :ص31 والانقطاع عن الناس والعزلة عمل اشتهر به الصوفية في العصر المملوكي وكان البعض يستمر في عزلته وانقطاعه عن الناس حتى يكون للناس فيه اعتقاد كما حدث مع خليل بن عثمان المقري المصري ت801هـ الذي انقطع بزاوية بسفح جبل المقطم وللناس فيه اعتقاد حتى كان السلطان يجله ويحترمه ويقبل شفاعته ويمكنه من الدخول عليه راكبا على حماره ابن حجر ذيل الدرر .ص31-32

([4]) ابن حجر،ذيل الدرر :ص 43-44 ، وقال عنه يصف بعده عن المناصب والوظائف : وعين مرة للقضاء فلما بلغه ذلك توارى، وذكر أنه فتح المصحف في تلك الحال فخرج له " قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه " وولي مشيخة سعيد السعداء مدة ولم يزل مستمراً على طريقته في الإفادة بنفسه ينظر انباء الغمر :112/2

([5]) المصدر نفسه :ص61 ،ينظر ابن حجر انباء الغمر :123/2

([6]) احمد بن عمر بن عمر بن عبدالله الخليلي ،ينظر ابن حجر ،ذيل الدرر :ص80

فأذن لنا وقال : اقرؤوا لنتبرك بذلك، فقرأت عليه في المسند فاتفق أن مررت بحديث أبي سعيد أن جبريل رقى النبي فقال : بسم الله أرقيك من كل شي يؤذيك الحديث، فوضعت يدى على الشيخ وهو مضطجع وقرأت الحديث وأنا أرقيه وانصرفنا، فجئنا الموعد الثاني وهو طيب" [1]ونجد في النص موافقة الحافظ ابن حجر لروح العصر المملوكي من زيارة الشيوخ والاخذ عنهم والتبرك بهم ،مما يعني ان علاقة ابن حجر وفقهاء العصر كانت في تواصل وود مع اعيان وشيوخ التصوف السني.

ومن الأمور التي أضحت ميداناً لمدح الصوفية وشيوخها لدى ابن حجر في ذيل الدرر الكامنة زهدهم وبعدهم عن المناصب والفرار منها فقال عن الشيخ محمد بن احمد بن ابي الفتح الاطعاني ت807هـ /1405م "ولد بحلب في شعبان سنة ثمان وأربعين ،وحفظ المنهاج وتفقه على الزين الباريني وكان والده ينوب في الحكم في بعض البلاد ففرض عليه ان يكون عوضه بعد ان يموت ،فأمتنع وتزهد ،ورحل الى القدس فلبس الخرقة من البسطامي ،[2] ثم رجع وانقطع بحلب في زاويته المعروفة خارج باب الجنان ،وكان دينا خيرا مقبلا على شأنه بهي المنظر حسن المخبر مات في ذي القعدة ،اثنى عليه برهان الدين المحدث وغيره" [3]ومن الذين ترجم لهم الحافظ ممن تزهد وترك الوظائف موسى بن علي بن محمد المناوي الذي برع وتنزل في المدارس ثم تزهد وترك كل ما بيده من الوظائف مجانا واعرض عن جميع الأمور ،[4]كما أشاد ببعض المتصوفة رغم قلة بضاعتهم العلمية لكن لهم من اعمال الخير ،ما دفعت ابن حجر الى ذكرهم والتنويه بمحاسنهم، منهم: احمد بن ابي احمد بن محمد بن سليمان المصري المعروف بالزاهد ت819هـ /1419م الذي اشتهر بالصلاح "وكان عابدا خيرا يعلم الناس أمور الديانة ولكنة كان قليل البضاعة فربما سئل عن شيء فأجاب بالخطأ المحض ،وكان قد اعتنى بالمساجد يعمر منها ما وهى ويستعين بأنقاض بعضها على تعمير بعض " [5]

خامسا– نقد التصوف الفلسفي ونحلة ابن العربي

الذي يطالع ما كتبه ابن حجر العسقلاني في التاريخ والتراجم كما في الدرر الكامنة وانباء الغمر وذيل الدرر الكامنة سيجده معاديا لمن يقول بدعوى ابن عربي بوحدة الوجود ويحط من قدرهم ويصفهم بأوصاف تؤكد ان ابن حجر لم يخرج عن منهج الفقهاء المعادين للتصوف الذي إشاعة ابن عربي ،ولابد من معرفة ما قاله ابن عربي على وجه الاختصار فقد وضع احد تلاميذ ابن حجر العسقلاني ، برهان البقاعي ت 885 هـ كتابا جمع فيه ردود العلماء على مقالة ابن العربي ولخص مقولاته في كتابه (تنبيه الغبي الى تكفير ابن عربي)وقال "وينبغى أن يعلم أولا أن كلامه دائر على الوحدة المطلقة ، وهى : أنه لا شيء سوى هذا العالم ، وأن الإله أمر كلي لا وجود له إلا في ضمن جزئياته . ثم إنه يسعى في إبطال الدين من أصله ، بما يحل به عقائد أهله ؛ بأن كل أحد على صراط مستقيم ، وأن الوعيد لا يقع منه شيء ، وعلى تقدير وقوعه ، فالعذاب ، المتوعد به إنما هو نعيم وعذوبة ، ونحو ذلك ! ! . و إن حصل لأهله ألم ، فهو لا ينافي السعادة والرضى ، كما لم ينافها ما يحصل من الآلام في الدنيا ، وهذا يحط عند من له وعي على اعتقاد : أنه لا إله أصلا ، وأنه ما ثم إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما وراء ذلك شيء" [6]

وترجم ابن حجر للعديد منهم في ذيل الدرر الكامنة واشهر من ترجم له من اتباع ابن عربي إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي ت806هـ /1404م وبين انه التقى به وانه كان يظن انه لا يعرف حقيقة ابن عربي ، لكن تبين لابن حجر انه عارف بمقولة ابن عربي ويقررها صريحا ويدعو اليها، ورغم بيان ابن حجر اقوال العلماء في ابن عربي الا ان الجبرتي كان ينقص على كل من لا يحصل على كتاب الفصوص وبين ابن حجر أسباب رواج نحلة ابن عربي في اليمن بسببه قائلا :"سلك طريق الزهد والتصوف ،ونظر مقالة ابن عربي ففتن بها، وغلبت عليه حتى صار من اكبر الدعاة اليه ،وسكن زبيد، واتفق أنه لما حاصرها العلوي والأشرف فيها بدت من الشيخ إسماعيل مقالة أنه لا يدخلها، فاتفق أن وقع كما قال فعظم عند الأشرف واعتقده وانتمى إليه من فقهاء زبيد طائفة فوصلوا إلى صحبة الملك، وتلمذوا له، ولازموا الأشرف وصاروا ندماءه وفشت مقالة ابن عربى هناك بواسطتهم، وصار كل من يرد البلد من الغرباء يحتاج إلى الشيخ وتلامذته

([1]) ابن حجر ،ذيل الدرر،ص102 ؛ ينظر ابن حجر، انباء الغمر :305/2

([2]) عبد الله بن خَلِيل الأسداباذي جلال الدّين البسطامي ت 785هـ ونزيل بَيت الْمُقَدّس، ينظر ابن حجر العسقلاني ،الدرر الكامنة ،32/3

([3]) المصدر نفسه ، ص 108 ؛وقال عنه في انباء الغمر : وصار معتقداً مقبلاً على شأنه ديّناً بهيّ المنظر وتلمذ له جماعة، وحجّ مراراً وجاور في بعضها، واشتهر عند أهل حلب وبنيت له زاوية، ولبس منه جماعة الخرقة، وكان الأكابر يترددّون إليه ويتبرّكون به ولا يزداد مع ذلك إلا تواضعاً وتعبّداً، وكان منور الشيبة حسن الخَلق والخُلق كثير الحياء بهيّ المنظر وسكن بعد الكائنة العظمى في دار القرآن المجاورة للجامع الكبير إلى أن مات ،ابن حجر ،انباء الغمر :311/2

([4]) المصدر نفسه ،ص196-197، وقال عنه انه وصل به الامر انه ساح في البراري وسكن الجبل ويقتات على النبات ولا يدخل البلاد الا يوم الجمعة بل وغادر الديار المصرية الى الحجاز فدخل مكة والمدينة وقال وظهرت له مكاشفات كثيرة وكرامات ثم انس الى الناس ولم يقبل ما يعرض عليه من المال الوفير التقى به ابن حجر في سنة 815هـ الا انه قد تغيير وخلط .ينظر ابن حجر ،انباء الغمر :153/3

([5]) المصدر نفسه ،ص 188، ينظر ابن حجر ،انباء الغمر 105/3

([6]) برهان الدين البقاعي ،تنبيه الغبي الى تكفير ابن عربي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ،(دار الكتب العلمية ،بيروت :1980)ص19

في قضاء حوائجهم، فيصير من أتباعهم رغبة ورهبة فقام الشيخ أحمد الناشري االشافعي - وهو إذ ذاك عالم زبيد - عليهم، فلم يجد أعوانًا، وامتحن جماعة من العلماء والصلحاء لأجلهم، منهم الشيخ صالح المصري، وكان صالحا كاسمه، فنفي إلى الهند بعد أن تعصبوا عليه ." [1]

وكان يقدح ببعض اتباع ابن عربي ويبين ما احدثوا من أمور في التصوف وما وقع منهم من أمور معضلة فقال عن شهاب الدين احمد بن هلال الحلبي ت 824هـ /1422م : واقبل على التصوف فأتقنه ،ثم توغل فدعا الى مقالة ابن العربي وصار له اتباع حملوه على أمور معضلة فصدرت عنه شطحات وزلات [2] وفي ظل الصراع بين الفقهاء ومتصوفة الاتحاد والحلول من اتباع ابن العربي أشار ابن حجر الى بعض اعيان الامراء ممن سلكوا مسلك الاتحادية منهم على سبيل المثال يلبغا الناصري ت821هـ / 1419م الذي تولى نظر خانقاة سعيد السعداء ووصفه انه كان فطنا عفيفا محبا في العلم وأهله مائلا الى طريق الصوفية يبالغ في تعظيمهم ورغم انه حبب اليه الحديث وحصل على وظائف عديدة منها الاستدارية [3]، ورغم احسانه الا ان ابن حجر نبه الى ميله الى نحلة ابن العربي "سمعته يقول : لولا وصية الشيخ ما صحبت أحدا منكم .فقلت :أي شيخ ؟ قال: ابن العربي ، قال في كتاب ما لا بد لكم منه لا تستوحش من كثرة المخالفين فان الكل على صراط مستقيم" [4]ومن المماليك الذين تقدموا في الدولة وكانوا يقربون أصحاب ابن العربي مقبل بن عبدالله الرومي ت802هـ ورغم حبه للعلم والعلماء الا انه تعمق فنظر في مقالة الاتحادية واحب كلام ابن العربي [5]

وإذ كان شديدا على الاتحادية فان ابن حجر قدح ونقد حتى شيوخه ممن مالوا الى ابن العربي وزعماء طائفة الاتحادية ، ففي اليمن انتقد شيخه محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادي ت817هـ /1415م وادعى انه لما كان على قضاء زبيد وجد الملك الاشرف قد مال الى إسماعيل الجبرتي الذي اشتهر بتعصبه لابن العربي وصار داعية اليه فتقرب شيخه اليهم بأن صار يدخل في شرحه على البخاري أشياء ينقلها من الفتوحات المكية وغيرها من كلام ابن العربي ، فلما اجتمع ابن حجر مع شيخه الفيروزابادي ذكر له بعض تلك الأشياء ،فتبرأ الشيخ من مقالة ابن عربي ووافق ابن حجر وبقيه الفقهاء فيما يقولون في ابن العربي رغم عدم اعجاب الجبرتي بما قاله ابن حجر[6]

ووصل الامر الى ان ابن حجر كان يثني على كل من يعادي غلاة المتصوفة من اتباع ابن عربي الذين اعتنقوا مذهب الاتحادية ، ومن العلماء وأصحاب السلطة الذين مدحهم وأشاد بموقفهم المعادي لاتباع الاتحادية ،تغري بن برمش بن يوسف التركماني ت823هـ "قدم القاهرة ...وكان يحب المحدثين ويحصل على كتب الحديث ،ويتعصب لأهل السنة ويحط على اهل الوحدة ،ويداخل الاتراك ،وكان له اتباع ومحبون، ... وكان كثير من الناس يبغضه لقيامه في الحق " [7]وربما رجع بعض العلماء والادباء عن القول بمقولة الاتحادية فيذكر ذلك الشخص وينبه الى رجوعه الى منهج اهل الحديث والسنة فقال عن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل البدر البشتكي ت830هـ /1427م نسبه الى خانقاه بشتك "كان أبوه أحد الصوفية بها، فولد له هذا في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ونشأ نشأة حسنة، وواظب الاشتغال، وتعانى فن الأدب حتى قال الشعر الرائق، وأخذ عن الشيخ جمال الدين بن نباتة وسمع منه أكثر شعره، وعن الشيخ بهاء الدين السبكي، والشيخ الصائغ، وشهاب الدين بن أبي حجلة والبرهان القيراطي، ومدح القاضي برهان الدين بن جماعة بعدة قصائد. وكان لازم الشيخ بهاء الدين الكازروني ونسخ له عدة من تصانيف ابن العربي، ثم فارقه ولازم النظر في كلام أبي محمد حزم ونسخ من تصانيفه الكثير وأحب مذهبه، وصار كثير الغض من الصوفية ممن ينتحل مقالة ابن العربي" [8]

ونالت بعض اعمال الصوفية ،استنكار ابن حجر وذمها ،وجزم بأنها تخالف الكتاب والسنة ،وقد تفضي الى اخراج من يفعلها من الإسلام ودون بعض تلك السلوكيات في تراجم ذيل الدرر الكامنة ،ومن تلك السلوكيات ما نسب الى احد مشايخ الشاذلية علي بن محمد بن وفاء الاسكندراني ت807هـ /1405م الذي احدث لاتباعه ذكرا خاصا يقولونه بأوزان والحان مصنوعة مرتبة بخفض للصوت ورفعه ولا يتعدى احد منهم ترتيبه في ذلك، فضلا عن اجتماع المردان والسفهاء في تلك الاوراد التي يقيمها واجاد الحافظ في نقل صورة تلك العادات فقال "

([1]) ابن حجر ،ذيل الدرر ،ص91 ، ينظر ،ابن حجر العسقلاني انباء الغمر :272/2

([2]) المصدر نفسه ،ص 217 ،وقال عن احدهم (دخل زبيد وله اشتغال في التصوف ،فصحب الشيخ إسماعيل الجبرتي الداعية الى مقالة ابن العربي ،فأختص به ،ونظم له القصائد الكثيرة في ذلك ،ينظر ابن حجر ،ذيل الدرر الكامنة ،ص200

([3]) الإستدار

بكسر الهمزة وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمتثل أوامره فيه

،ينظر :القلقشندي ، احمد بن علي ،صبح الاعشى في كتابة الانشا ،تحقيق، يوسف علي الطويل (دار الفكر ،دمشق :1987)429/5

([4]) ابن حجر المصدر نفسه ،ص 139

([5]) المصدر نفسه ،ص53

([6]) المصدر نفسه ،178

([7]) المصدر نفسه ،ص 211، ومن الذين مدحهم بسبب موقفهم الشديد من المتصوفة احمد بن ابي بكر الناشري شيخ اهل زبيد الذي انتهت اليه رياسة الفتوى ،كان شديدا على مبتدعة الصوفية ،وكانت لهم شوكة قائمة ومع ذلك فكان لا يفتر عن الانكار عليهم وقمع من سار فساد مقالتهم شيئا كثيرا قال ابن حجر رأيته بزبيد ونعم الشيخ كان ،ينظر ابن حجر ذيل الدرر ،ص159

([8]) المصدر نفسه ،ص239

وأصحابه يفرطون في تعظيمه ويطرونه بما ليس فيه، وكان هو يعينهم على ذلك، فأحدث في الذكر الذي رتبه أن يقال فى فواصله يا مولاى يا واحد، يا مولاى يا دائم، يا علي يا حليم، وكانوا يقولون ذلك بلحن مخصوص ويومئون إليه إذا قالوا : يا علي، ولا يخاطبونه في غيبته وحضوره إلا بسيدي، وكتبوا على رأس المحراب الذي أحدثه في داره التي عمرها بالكافورى: ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لسان صدق عليا﴾ ويسمون ما يرتبه من المواعظ : التنزلات إلى غير ذلك، وقد حضرت مرة معه وليمة فعمل صاحبها سماعا، فقام الشيخ علي يرقص فسقطت عمامته، فرمى أتباعه كلهم عمائمهم، وسقط من التواجد فخروا إلى جهته سجدا، فصرخت أنا بإنكار ذلك، فصاح وهو في وسط السماع : ﴿فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ فصاح به من حضر من جوانب الحلقة : كفرت كفرت، فترك الحلقة وخرج هو وأتباعه." [1]

سادسا- طبائع بعض الصوفية وأسباب رواجها بين العامة.

هناك العديد من الأمور التي ذكرها ابن حجر ،والتي تفسر انتشار التصوف والاعتقاد بالمتصوفة في الثلث الأول من القرن التاسع ،وهي أمور لا تختلف عن ما كان موجودا لدى متأخري المتصوفة في القرون السابقة ، منها الكرامات والعزلة والانقطاع والتقرب الى المجذوبين ،فقد ذكر العديد من الأشخاص الذين لقوا رواجا كبيرا عند امراء المماليك بمصادفات غريبة تبين ضعف فهم أولئك الامراء لمجرى الاحداث والقضاء والقدر ومقدار الجهل الذي كان يحمله بعض الخاصة من امراء المماليك ، فمثلا ان احمد بن احمد الزهوري ت801هـ/1399م الذي لقي قبولا كبيرا عند احد سلاطين المماليك بقصة طريفة فقال ابن حجر يصف تلك الحادثة "كان أصله من العجم، وقدِمَ ،دمشق، وهو يَهْذِي في حديثه، واتفق أن برْقُوق لما كان بدمشق رأى في المنام أنه ابتلع القمر بعد أن صار في هيئة رغيف، فلما أصبحَ مَرَّ بالزهوري فصاح به يا بَرْقُوقُ أَكَلْتَ الرَّغيف؟ فاعْتَقَد صلاحه، فلما أفضى إليه الأمر أحضره إلى القاهرة وأفرط في تعظيمه بحيث كان يُحضره مجلسه، فربما بصق في وجهه وسبه ولا يتغير منه، وكانَ يُدخله على الحُرمِ ولا يَحْتجبن منه، وكان يكاشف كثيراً، بالأمور التي تقع على وفق ما يَقُول ، فَيَعْظُم اعتقادهم فيه" [2] ومن الامراء الذين صاروا متصوفة علي بن عبدالله التركي ت 804هـ /1402م الذي كان احد خواص السلطان الناصر محمد بعد ان شفي على يد شيخ صالح من مرضه الجلدي الذي عجز عن الحصول على دواء له عند الأطباء ، فاعتقد الشيخ وترك الجندية وسلك على يده وانقطع الى ان اشتهر بالخير والعبادة ونقل ابن حجر كلاما عنه يبين اعجابه به"اشتهر بالخير والعبادة، ولم يترك زيه، ولا لبس مرقعة، ولا أخذ في يده سبحة، بل كان مقتصداً في مأكله وملبسه، ويتصدق بكل ما يفتح عليه " ويُؤثر من يحتاج إليه، وكان يقول : ما رأيتُ مثل الشيخ عمر في الورع، ولا رأيتُ اهيب من الناصر وكان يقول : أعرف الناس من زمن الناصر فما رأيت لهم عناية بأمر الدين، بل كانت فيهم حشمة وحياء، فاضمحل ذلك قليلا قليلاً، وكان للناس فيه اعتقاد كثير ويحكى عنه كرامات كثيرة، وكانت شفاعته لا ترد." [3] واورد قصصاً وروايات تبين أسباب رواج التصوف وكيف يعتقد الناس ببعض الشيوخ وانهم من اهل الكرامات بمصادفات غريبة فقال عن احدهم(كان من اعيان الحلبيين ولما طرق اللنك حلب امسكه اعوانه واردوا مصادرته واحضروا سطلا ملؤوه ماء وملحا ليسعطوه، فاتفق ان انفلت ثور فأكب على السطل فشرب جميع ما فيه، فاعتقدوها كرامه للشريف، فاطلقوه ولم يتعرض له احد منهم بعد ذلك" [4]

ومن الأشياء التي اخذت اهتماما كبيرا لدى ابن حجر وجعلها من أسباب رواج التصوف في مصر المملوكية ،هي ما يدعيه بعض الصوفية من كرامات ، يروجها الاتباع لشيوخهم حتى يلقى الشيخ الرواج بين العامة ، تسبقها بعض الأمور منها ان يكون الشيخ قد اعتزل الناس فيجاور في الديار المقدسة مثلا كما حصل مع عبدالله بن سعد الحرفوش ت 801هـ /1399م الذي جاور في مكة ثلاثين سنة وكان ينقل عنه إخبار بما سيقع [5]واختط البعض الآخر من الصوفية طريقا آخر غير الجوار وهو الانقطاع عن الناس والتجوال في البراري، حتى يلقى

([1]) المصدر نفسه ،ص105،ص220، وقال عنه:كان يقظا حاد الذهن اشتغل بالوعظ ...وكان له اتباع وله من التصانيف الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، والكوثر المترع في الأبحر الأربع، وشعره ينعق بالإتحاد المفضي إلى الإلحاد، وكذا نظم والده وفي أواخر أمره نصب في داره منبراً وصار يصلي الجمعة هو ومن يصاحبه مع أنه مالكي المذهب يرى أن الجمعة لا تصح في البلد ولو كبر إلا في المسجد العتيق من البلد، ينظر انباء الغمر :2/308-309

([2]) المصدر نفسه ،ص 26، ينظر السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الضوء اللامع للاهل القرن التاسع (مكتبة الحياة بيروت : د ت) 215/1 .

ومن هؤلاء الذين راج امرهم عند سلاطين المماليك وذكرهم ابن حجر :إبراهيم بن محمد بن بهادر بن عبدالله الغزي المعروف بابن زقاعة ت 816هـ فقال في ترجمته ما نصها((ذكر لي أنه ولد سنة خمس وأربعين، وذكر لي غيره أنه ولد قبل ذلك بكثير، واشتغل ببلاده، وأخذ عن المشايخ بها وبالقدس وغيرها في القرآن والأدب، وتعاني الخياطة مدة في شبابه، ثم صار يبيع النبات والأعشاب ويحصل ذلك من تلك الجبال واشتهر بالحذق في ذلك، ثم تجرد مدة وتعبد، وتعلم علم الحرف وأقام بمنزله بعد ذلك مقصوداً من الطوائف إما لمن يقرئه القرآن، وإما لمن يتعلم منه علم الحرف، وإما من يتعلم منه منافع النبات وصفاته، وانتهى أمره إلى الملك الظاهر، وكان ولده الأكبر محمد قد أصيب في رجله بداء، فبعث واستدعاه إلى القاهرة وعظمه، وتبعه على ذلك أهل دولته، ويقرر تحضير المولد النبوي كل سنة باستدعاء من الظاهر، فقامت له بذلك سوق، ونسبت إليه كرامات وخوارق، وكان يعرف طرفاً جيداً من الشعوذة ويوهمهم بمعرفة الكيمياء، فلما ولى الناصر فرج راج عليه أكثر من رواجه على أبيه، حتى كان لا يسافر إلا في الوقت الذي يحده له))ابن حجر ،ذيل الدرر،ص 165

([3]) المصدر نفسه ،ص 74؛ قال السخاوي : (0كَانَ أَبوهُ من المماليك السُّلْطَانِيَّة فَنَشَأَ هُوَ فِي بَيت الْملك النَّاصِر مُحَمَّد بن قلاوون الْكَبِير فَلَمَّا كبر خرجت فِي وَجهه قوبا فتألم وعالجها فَلم ينجع فِيهَا دَوَاء فَوجدَ شَيخا يُقَال لَهُ عمر المغربي فَطلب مِنْهُ الدُّعَاء فاستدعاه ولحس القوبا بِلِسَانِهِ فشفاه الله سَرِيعا فاعتقده وَرمى الجندية وَتبع الشَّيْخ الْمشَار إِلَيْهِ وسلك على يَدَيْهِ))الضوء اللامع :255/5

([4]) المصدر نفسه ،ص 61،وذكر في ترجمة أبي بكر بن قاسم بن عبد المعطي الخزرجي ان دخل بلاد التكرور مع بعض التجار ،فكان يذكر انهم استسقوا فدعا لهم فسقوا ،فاعتقدوه ثم رجع الى مصر ،وكان حسن المذاكرة كثير الزيارة للصالحين ،ينظر ذيل الدرر ،ص92

([5]) والعجيب ان ابن حجر لم يبدِ أي تعجب حين ذكر ذلك ،ينظر ذيل الدرر،ص33،ومن الذين كان للمصريين فيهم اعتقاد أبو بكر بن محمد الجبرتي الملقب بالمعتمر ت 820هـ لكثرة اعتماره وللناس فيه اعتقاد جاور ثلاثين سنة في مكة ،ينظر اذيل الدرر 192 ، ومن أولئك الذين اثر عنهم كرامات كان يدعي اتباعه انه ينسبها لغيره محمد بن موسى الدميري

القبول ، او ان الناس تعتقد انه صار من الصالحين ،الذين ينفعون ويضرون ويتبارك بهم العامة والخاصة ، مثل موسى بن علي بن محمد المناوي الذي تزهد وترك ما بيده من الوظائف ...وانقطع في الجبل يقتات النبات ولا يدخل البلد الا يوم الجمعة ... وساح في البراري كثيرا ،وظهرت له كرامات ومكاشفات [1]

ومن الشخصيات التي نبه اليها ابن حجر ودون اخبارها واخبار اعتقاد الناس بهم في العصر المملوكي ،هم المجذوبون الذين كان للمصريين فيهم اعتقاد كبير والعجيب ،اختلفت أسباب الاعتقاد ، فمنهم من كان يعيش في القرافة ويمشي فيها ويهذي بكلام غير مفهوم ، ويحملون كلامه وفعله على المكاشفة [2]وآخر هام بزوجة طلقها فكانت سبب انجذابه وللعامة فيه اعتقاد ولما اتصلت بغيره اصابه خبال حتى نزع ثيابه ومشى عريان [3]ونجد آخرين اعتقدهم المصريون لأسباب أخرى منها ان رجلا اسود اللون من الموالي ادعى انه من الأنصار وكان بين عينيه سجادة وصحب بعض القضاة وله فنون واناشيد حسن المحاضرة[4]وآخر ورث التصوف عن ابيه الذي كان للمصريين فيه اعتقاد ،فطلب العلم مع ابن حجر ولازم اكبار شيوخ العصر مدة ،ثم انقطع بزاوية ابيه يشغل الناس بالعلم ويكرم الواردين ،فاشتهر امره وصار للناس فيه اعتقاد [5]

ومما تجدر الإشارة اليه ان ابن حجر ذكر المنشآت العلمية التي بنيت للصوفية ، والتي كانت تقدم الخدمات الاجتماعية والعلمية لكل من يدخلها او يستقر بها من طلبة العلم ومريدي الصوفية ، وذكر العديد من اعيان التصوف الذين تولوا مهام التعليم والاشراف على تلك المدارس والخانقات ،التي تكفل امراء المماليك وأغنياء المجتمع بالإنفاق عليها ووقف الأوقاف على الطلبة والمدرسين ومن الذين ذكرهم ابن حجر محمد بن عبدالله القليوبي ت812هـ /1410م[6]،الذي تولى مشيخية الناصر بسرياقوس [7] لكونه متواضعا لين الجانب اشتغل بالعلم ومهر بفنون عديدة مع الديانة والخير. [8] ومن شيوخ ابن الحجر المشهورين بالتصوف شيخ البيبرسية ،علي بن عبد الرحمن الضرنجي ت 813هـ /1411م [9] واثنى ابن حجر على بعض معاصريه [10] بكونه عالما اشتغل كثيرا وقال الشعر الجيد والف مدائح نبوية ومدح احد الامراء فجعله اماما لسعيد السعداء [11] .

نتائج البحث

1. تبين من البحث اهتمام ابن حجر بالتاريخ الثقافي للعصر المملوكي والفرق والمذاهب الإسلامية.
2. لابن حجر مكانة علمية كبيرة ويعدُّ مصدراً مهماً من مصادر دراسة التصوف في العصر المملوكي.
3. بسبب الجهل والتخلف والقهر والتسلط اتجه عوام الناس الى التواكل والبحث عن الخلاص بالاعتماد على بعض المشايخ وغيرهم.
4. تبين انتشار التصوف في طبقات المجتمع كافة وقرب الحكام المتصوفة طلبا للثواب.
5. انتشر في اليمن متصوفة غلاة من اتباع ابن عربي كان للحافظ ابن حجر موقف متشدد منهم.

ت 808هـ وصفه بأنه كان ذا حظ من التلاوة لا يفتر لسانه غالبا عنها وضبطت عنه إنذارات بكثير من الكوائن وقعت على وفق ما قال وكان يسند ذلك لبعض الصالحين ولا يعترف قط في شيء من ذلك...وكان اكثر أصحابه يقولون :انه انما يعني نفسه .ينظر ،ذيل الدرر ،ص118

([1]) ابن حجر، ذيل الدرر،ص197 والغريب ان البعض ترك الدنيا وما فيها ولقي مدح الحافظ مثل احمد بن إبراهيم بن عرب اليماني ت 830هـ الذي انقطع عن الناس مع مواظبة على الجمعة والجماعة ،واقتصر على ملبوس في غاية الخشونة ويقنع باليسير من القوت حتى صلى عليه السلطان وجمع غفير من الناس لما مات وتنافس الناس في الحصول على اثاره ،ينظر ابن ،حجر ،ذيل الدرر ،ص238

([2]) ابن حجر ،ذيل الدرر ،ص 48

([3]) ابن حجر ،ذيل الدرر،ص111

([4]) ابن حجر ا،ذيل الدرر ،ص197

([5]) ابن حجر ،ذيل الدرر، ص 211

([6]) ابن حجر ،ذيل الدرر ،ص141

([7]) بناها السلطان الناصر محمد بن قلاون في سنة 723هـ واكتمل البناء بعد سنتين، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفيّ، وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة، وبنى بها حمّاما ومطبخا، ينظر المقريزي، المواعظ والاعتبار ،ج4/ص293_294

([8]) ابن حجر ،ذيل الدرر ،ص 141

([9]) ابن حجر ،ذيل الدرر،ص 148

([10]) هو محمد بن محمد بن عبد الصمد البغدادي نجم الدين الزركشي ت813هـ ،ينظر ،ذيل الدرر ،ص151؛ كما ذكر ان محمد بن علي البلالي من قرى عجلون قد تولى مشيخة الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ؛وقال كان متواضعا حسن الخلق والخلق من مؤلفاته مختصر احياء علوم الدين وكان له اوراد ومحبون وكان لقي الاستحسان من فضلاء العصر ،ذيل الدرر :ص196؛ وقال السخاوي عن البلالي المذكور : ((وَعرف بِالْخَيرِ وَالصَّلَاح قَدِيما واشتهر بالتعظيم فِي الْآفَاق وَحسنت عقيدة النَّاس فِيهِ، واستقدمه سودون الشيخوني نَائِب السلطنة فِي حدود التسعين وولاه مشيخة سعيد السُّعَدَاء فدام بهَا نَحْو ثَلَاثِينَ سنة لم يزل عَنْهَا إِلَّا مرّة بخادمها خضر لقِيَام تمراز نَائِب الْغَيْبَة فِي الْأَيَّام الناصرية فرج وَلم يمض سوى عشْرَة أَيَّام ثمَّ جِيءَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ وعد ذَلِك من كرامات البلالي ثمَّ أعِيد. وَكَانَ كثير التَّوَاضُع إِلَى الْغَايَة منطرح النَّفس جدا مَشْهُورا بذلك كثير الْبَذْل لما فِي يَده شَدِيد الْحيَاء كثير الْعِبَادَة وَالتلاوة وَالذكر سليم الْبَاطِن جدا يحَيْثُ كَانَ كثير من النَّاس يتَكَلَّم فِيهِ بِسَبَب مَا لَهُ من المباشرات بالخانقات)) الضوء اللامع ،178/8

([11]) كانت دار للوزير شاور الفاطمي ،فجعلها صلاح الدين بعد سيطرته على مصر دارا للفقراء الصوفية القادمين من مختلف البلاد واوقفها سنة 569هـ لهم واوقف لها اوقافاً ورتب لمن يسكنها من الصوفية في كل يوم طعام وبنى لها حماما فهي اول خانقاه عملت في مصر ونعت شيخها بشيخ الشيوخ. ينظر المقريزي المواعظ والاعتبار ج4/ص282

6. . يفرق ابن حجر بين التصوف السني المعتدل ويمدح شيوخه في حين ينتقد التصوف الفلسفي مثل تصوف ابن عربي

7 . ابن حجر العسقلاني وان كان بالضد من التصوف الفلسفي الا انه يوافق المجتمع بالثناء على الصوفية والزهاد الذين قدموا خدمات للمجتمع المصري في إيواء الفقراء والانفاق عليهم، والزهد في الدنيا

References

1. Aeunwan alddrayt fayman eurf min aleulama' fi almiayat alsaabiea bi bijaya, 2nd ed., edited by Ajaj Nuwayhid, Dar Al-Afaq Al-Jadida, Beirut: 1979
2. Ahmad Amin
3. Al-Baqa'i, Ibrahim ibn Umar ibn Hasan, d. 885 AH.
4. Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad ibn Uthman, 748 AH.
5. Al-Dhahabi's Views on Sufism, Adab al-Rafidain Magazine, Vol. 49, No. 76, 2019.
6. Al-Gharini, Ahmad ibn Ahmad ibn Abdullah,
7. Al-Imad al-Hanbali, Abd al-Hayy ibn Ahmad ibn Muhammad ibn al-Imad al-Akri, d. 1032 AH.
8. Al-Jawahir wa al-Durar fi Tarjamah Shaykh al-Islam Ibn Hajar, edited by Ibrahim Bajis, Dar Ibn Hazm, Beirut: 1999.
9. Al-Manhal al-Safi, edited by Sa'id Abd al-Fattah Ashur, Egypt, Egyptian Book Organization: Dr./Tr.
10. Al-Maqrizi Ahmad ibn Ali ibn Abd al-Qadir, d. 845 AH
11. Almawaeiz walaietibar fi dhikr alkhutat walathar, 1st ed., Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut: 1418 AH.
12. Al-Sakhawi, Shams al-Din Muhammad ibn Abd al-Rahman, d. 902 AH.
13. Al-Taftazani, Abu al-Wafa al-Ghanimi
14. Anba' al-Ghamr bi-Abna' al-Umar, edited by Hasan Habashi, Heritage Revival Committee, Egypt: 1969.
15. Dhayl al-Durar al-Kamina, edited by Ahmad Farid al-Muzaidi, 1st ed. (Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut: 1998).
16. Ibn Hajar al-Asqalani, Ahmad ibn Ali, d. 852 AH.
17. Ibn Khallikan, Abu al-Abbas Shams al-Din Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim, d. 681 AH
18. Ibn Taghri Bardi, Yusuf ibn Taghri Bardi ibn Abdullah al-Hanafi, d. 874 AH.
19. Introduction to Islamic Sufism, 3rd ed., Dar al-Thaqafa, Cairo: D/T.
20. ldaw' alsaatie lieuyun alqarn altaasie
21. Maktaba al-Hayat, Beirut: n.d.)
22. Mansour, Ahmed Sobhi
23. Periodics
24. Religious Beliefs in Mamluk Egypt between Islam and Sufism, Egyptian Book Organization: 2000
25. Saleh, Muhammad Ali
26. Shadharat aldhahab fi akhbar min dhahab, edited by Mahmoud al-Arnaout, 1st ed., Damascus, Dar Ibn Kathir: 1986.
27. Tanbih al-Ghabi ila Takfir Ibn Arabi, edited by Abd al-Rahman al-Wakil, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut: 1980.

28. Tarikh al'iislam wawafayat almashahir walshakhsiaat edited by Bashar Awad Marouf, 1st ed., Dar al-Gharb al-Islami, Beirut: 2003..
29. The Dawn of Islam, 3rd ed., Dar Al-Kutub Al-Arabi, Beirut: /d/t
30. The Role of the Historian in Arab-Islamic Civilization in the Writings of al-Sakhawi, Vol. 39, No. 53, 2009.
31. wafayat al'aeyan wa'anba' 'abna' alzaman , edited by Ihsan Abbas, 1st ed., Dar Sadir, Beirut: 1990..
32. Younis, Abdul Qadir Ahmad and Ahmad, Muhammad Abdullah